معيارية القراءات القرآنيّة وفق تعليلية اللهجات العربيّة في ظل الدرس اللغويّ.

The standard of Qur'anic readings in accordance with the explanation of Arabic dialects under the linguistic lesson.

الطالب: محمد صرّاع*

جامعة أحمد زبانة-غليزان- (الجزائر)، Mohamed.saraa@yahoo.com

د/ محمد مقدّم

جامعة أحمد زبانة-غليزان- (الجزائر)، mok_med76@yahoo.fr

تاريخ الوصول 11-10-2020. تاريخ القبول 07-06-2021 تاريخ النشر 2021/09/27

(الملخص):

إنّ مثل هذه الدّراسات، توقفنا على معرفة العلاقة بين الفصحى و مستوياتها اللّهجية اللسانية و من الحقّ أنه ليس كل ما تستعمله العامّة خطأ إذ أن في بعض مفرداتها طاقة تعبيرية خاصّة، لإثراء الفصحى وتلقيحها.و لا شكّ أنّ القدامى قد قدّموا لنا إثراءات عظيمة في الدرس اللّغوي للعربية، وتِلكم هي محاولتهم لفهم الواقع قبل الإسلام كما تمثله القراءات القرآنية و ليس من شك في أنّ القراءات تمثل منهجا سليما في النّقل لا يصل إلى وثاقته علم آخر مهما يكن ، حتى المنهج الحديث.

و لعلّ أنّ الأصوب أننا بصدد دراسة العناصر التي تُكوّن العربية الفصحى أو تلك الخصائص اللّهجية التي تنسب إلى قبائل بذاتها ثم دخلت الفصحى و صارت جزء منها أي صار لها مستوى من الفصاحة يقرأ به القرآن و ينظم به الشّعر .

الكلمات المفتاحية: القرآن، اللغة، اللهجات، القراءة، الاستدلال.

Abstract:

Such studies have stopped us from knowing the relationship between classical and its linguistic levels, and it is true that not everything that the public uses is wrong, as some of its vocabulary has a special expressive energy, to enrich and pollinate classical.

There is no doubt that the ancients have given us great enrichments in the linguistic lesson of Arabic, and these are their attempt to understand the reality before Islam as represented by the Qur'anic readings and there is no doubt that the readings represent a sound approach in transport that does not reach the link of another science whatsoever, even the modern approach.

Perhaps the best thing is that we say that we are studying the elements that are classical Arabic or those characteristics of the dialect that are attributed to the tribes themselves and then entered the classical and became a part of it any level of eloquence that reads the Qur'an and organizes poetry .

Keywords: Qur'an, language, dialects, reading, inference.

*المؤلف المرسل

1. مقدّمة:

كانت اللهجات العربية سببا وجيها في نشأة القراءات القرآنية حتى يستطيع كل عربيّ أن يقرأ الكتاب على لهجة قومه. فالقراءات تناولت طرق الأداء الصوتي فأصبح من اليسير للذي يسمع القرآن الكريم مرتّلا على وجوه القراءات أن يقول هذه قراءة الحجازيين أو التميميين ونحوه، فإذا كانت القراءات القرآنية هي المقام الأول والرئيسي المعتمد في معرفة اللّهجات وجب الاعتماد على كل أنواع القراءات صحيحها و شاذّها، فالقراءات الصحيحة ليست كل القراءات التي كان يقرأ بها المسلمون الأوّلون لكنّها المشهورة.يقول: السّيوطي (ت911هـ) " كل ما ورد أنه قرئ به جاز الاحتجاج به سواء كان متواترا أم أحاد أم شاذ، وقد أطبق النّاس على الاحتجاج بالقراءات الشاذّة في العربية، إذ لم تخالف قياسا معروفا بل ولو خالفته يحتج بها في مثل ذلك الحرف بعينه"[1]، وهذا الراجح والميسور من قول الإمام حول تعقيبات القراءة فأرى من كانت له رواية متواترة نقلا وعقلا فذاك هو الاحتجاج عينه ومن هنا يتسنى لك الطرح التّالي إلى أي مدى يمكن للقراءات القرآنية أن تجد ضالتها في اللهجات العربية ؟

2. علاقة القراءات القرآنية باللّهجات :

يرى عبده الراجحي أنّه بإمكاننا الاعتماد على القراءات صحيحها وشاذّها في معرفة اللّهجات العربية واقترح منهجا لذلك حيث قال: "لكنّنا نتبع منهجا آخر وهو أن نجمع هذه القراءات من مضانيها ونخرج منها ما نراه ممثلا للهجة من اللهجات. وننسب هذه اللهجات إلى قبائلها ونبحث عمّا يؤديها في المصادر الأخرى من اللّغة و الأدب وندرس الدرس اللّغوي العلمي الحديث"[2]، والمراد من قوله هو تتبع أثر اللّهجات العربية الموافقة والمتقاطعة مع النص القرآني، وجدير بالرأي أن الخطأ اللّهجي إذا شاع صار فصيحا مثله في العربية الفصحى عظم شأنه وصار استدلالا حتى وان كان في ملمح التقعيد كالنحو والصرف. وكلّ هذا التّخريج إنما يقوم على ملمح الاستقراء، الجزء فالكلّ.

فتلاحم القراءات القرآنية بالأصوات العربية تلاحم وطيد، كما علله ابن قتيبة لاختلاف القراءات واللّهجات. وما وصفوه من ضوابط للقراءات باللّهجات العربية ومن بينها أن تكون القراءة موازية للعربية ولو بوجه، وهذا ما يؤكّد صحّة القراءات باللّهجات العربية على تنوعها وهذا ما دفع المسلمين لحفظ تراثهم وهو القرآن الكريم كونه دستورهم وهذا يعني إتقان النّطق الصحيح لحروفه. فالتّحري والدّقة لهما أهمية كبرى في صيانة القرآن الكريم وحفظه على مرّ العصور. وتلك الإجادة في النّطق تبعد القارئ عن الوقوع في الخطأ والتّحريف ودون ذلك، وذلك لا يأتي إلا بالتّلقّي والمشافهة وفق قواعد مرسومة متلقاة عن أئمة القراءة المتّصلة السند بالرسول صلى الله عليه وسلم، وأيٌّ بعد هذا المنهج يعدّ عدولا وانزياحا وخروجا على القراءة الصحيحة، ولحنا يؤدي بصاحبه إلى الوقوع في الإثم والضّلال.

ومن هنا قامت مآثر علم التّجويد والتّرتيل على أساس وصف مخارج الحروف وموقعيتها، يهتدي بها الناطق ويرشد إلى التمثيل الصحيح للأصوات العربية، وطريقة نطقها في القرآن الكريم، كما حدد هذا العلم صفات الحروف وعرف أنواعها "من جهر وهمس وشدة ورخاوة وتوسّط وانفتاح واستعلاء وإطباق وما يترتّب عليها من قوة أو ضعف"[3].

ومعنى هذا الاعتدال على إجادة هذه المخارج والصّفات، واجب الإتّباع لتحقيق المنطق الفصيح المجوّد للقرآن الكريم المتمثّل في الحروف الهجائية التي استوت عند العرب على أحسن وجه.

وليست القراءات السّبعة وحدها مصدرا من مصادر اللّهجات العربية بل تشاركها القراءات الشّاذة، لأنّ لها سندا من صحّة الرواية وموافقتها وجها من وجوه العربية وهذا المشار اليه في المقدمة لو أن الخطأ شاع لصار فصيحا وهذا مايراه علم الدين الجندي أنّ القراءات الشّاذة صورة نابضة بالحياة لكثير من لهجات القبائل العربية ولكن هاته القبائل لم تنل مجدا وجاها فحكموا بشذوذ قراءتهم التي هي صور حية للهجاتهم. ولم يكتف بذلك فحسب، كما له نظرة حول أنّ القراءة وإن شذّت فهي أقوى من تراث النّثر والشّعر على السّواء، في حين يرى الاستدلال بالقراءة الشّاذة في قواعد اللّغة أقوى من الاستشهاد بالشواهد الشعرية والنثرية، وبذلك يكون القرآن الكريم مصدرا أوثق في دراسة اللّهجات العربية القديمة لأنها متفرّقة في القرآن فبعضه "بلغة قريش، وبعضه بلغة هذيل، وبعضه بلغة هوازن، وبعضه بلغة أهل اليمن"[4]، وبذلك تتضح العلاقة بين القراءات واللّهجات، فالقراءات القرآنية مرآة صادقة تعكس الواقع اللّغوي الذي كان سائدا في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام، فمنهج علم القراءات في طريقة نقل اللّهجات يختلف عن كل الطرق التي نقلت بها المصادر الأخرى كالشعر والنثر، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلقى الوحي ثم يعرضه على جبريل ويقرؤه على الصحابة ويقرؤون عليه، وعلى ضوء هذا المنهج السليم سار أصحاب القراءات، فهذه الأخيرة لا تكتفي في النقل بالسماع فقط بل لابدّ من شرط التّلقي.

بالإضافة إلى ذلك فإن أهل القراءات زيادة على شهرتهم بالضّبط والدقة والإتقان كانوا على معرفة واسعة بالعربية ووجوهها فقد كان معظمهم نحاة وعلماء لغة، ورغم ذلك ظهر صراع كبير بين النحاة والقرّاء، فالنّحاة أصحاب تقعيد و تنظيم وكثيرا ما نجد روايات القرّاء تخرج على قواعدهم، فلا يكون منهم إلا تجريحها وإخراجها على التّوهم، يقول الراجحي: "..... ولو كان النّحاة مهتمين بدراسة اللّهجات العربية القديمة لما ردّوا هذه القراءات ولما جرحوا أصحابها"[5]. أمّا القرّاء فهم أصحاب أداء وأهل وتألّق وعرض، وهم في نقلهم للغة وعرضها أدقّ من النّحاة، وقد كان علماء القراءات والمهتمون بها يدركون هذا الفرق بين منهجي النّحاة والقراءات، ويرون أنّ منهجهم

أوثق وأصح من هذه الأصول والقواعد التي خضع لها النحاة وحاولوا أن يُخضعوا لها العربية في كشف مرذول تلك اللّهجات وما احتوته من قراءات قرآنية .

3. نظرة العلماء إلى القراءات القرآنية .

لقد أخبر الأوّلون ووقفوا حائط سدّ لمنع الخوارق والزحمات في حفظ القرآن الكريم، وهذا دفعهم إلى الاصطدام بظواهر لغوية تتعدى المستويات المتعارف عليها فأجبرتهم للنّظر في التّراث اللّغوي وفي القرآن الكريم، فكان من هذا نشأة النّحو التلقائي، حتى صار علما قائما بذاته، فقد شغلت القراءة أذهان النّحاة منذ نشأة النّحو. ذلك أنّ النّحاة الأوائل كانوا قراء كـ(أبي عمرو بن العلاء ت 154هـ) و(يونس بن حبيب ت 182هـ) وغيرهم، ولعلّ اهتمامهم بها وجههم إلى الدّراسات النّحوية واللّغوية ليلائموا بينها، وما روي من كلام العرب الأولون فقد كان أبو عمرو يؤيد قراءة النّصب في قوله تعالى:﴿ ***أيّهم أشدّ على الرّحمن عتيّا*** ﴾ ***(مريم الآية 69)***، فقد وردت (أيّهم) مرفوعة في قراءة بعضهم قال أبو عمرو : خرجت من الخندق – يعني خندق البصرة – حتى صرت إلى مكّة لم أجد أحدا يقول ضرب أيّهم أفضل، أي كلهم ينصبون.

وموقف النّحاة البصريين من القراءات يترجمه إمامهم سيبويه(المتوفى سنة180هـ) فقد كان وفيا لنسبة القراءة أمينا على منهج أستاذه الخليل بن أحمد الفراهيدي (المتوفى سنة173هـ) في تصحيح ما يروي من وجوهها ولا يبخل عن وصف بعضها بالقوة أو بالحسن ما دامت توافق الذائع المعروف من كلام العرب الذي توخّى فيه ضبط القرآن وصرفه من التّحريف. كل هذا يوسع لها في بناء الأصول النّحوية وفي طرائق الاستدلال مثل سائر المصادر، ما دامت توافق مقياسه و قد تجلّى ذلك أكثر في اعتماده على الحروف التي يوقن أنّها مخالفة لرسم مصاحف المسلمين، على أنّ هذا لا يعني أنّها هي المصدر الأساس لتنظيره النّحوي، وقد صرّح سيبويه أكثر من مرّة " أنّ القراءة سنة متّبعة وليست مجال للاجتهاد والاختيار"[6].

والراجح من هذا أنّ البصريين لا يحتجّون بالقراءات إلاّ في القليل النادر الذي يتّفق مع أصولهم ويتناسب مع مقاييسهم، فأشار سيبويه في ذلك قائلا: "وقد استبعد البصريون من منهجهم الاستشهاد بالقراءات إلا إذا كان هناك شعر يسندها، أو كلام عربيّ يؤيدها أو قياس يدعمها"[7].

فمنهج الاستدلال يغمره الشاهد وله في الحجة نظير فالبصريون "يقفون عند الشواهد الموثوق من صحتها، كثيرة النّظائر؛ ولذا كانت قياساتهم أقرب إلى الصّحة، وكانوا يؤولون ما ورد مخالفا للقواعد، ويحكمون بأنّه شاذ وموضوع"[8]. أمّا الكوفيون "فمنهجهم يخالف منهج البصريين فهم نحاة وصفيون، ينطلقون من واقع اللّغة ويرخصون القياس النّظري إذا عوّدتهم الشواهد فيصلون إلى القاعدة من خلال اعتمادهم على تعميم الحكم بالنظر إلى السماع (الواقع اللّغوي) ولو كان شاذا"[9].

وعن الاحتجاج بالقراءات فهم لم يتحفظوا كما تحفظ البصريون، ذلك لأنّهم رأوا "أنّ القراءات سندها الرّواية وهي من أجل هذا أقوى في مجال الاستشهاد، ومن ثم كانت في نظرهم مصدر تقعيد القواعد، وبناء الأساليب وتصحيح الكلام بغض النّظر عن موافقتها للقياس المأخوذ أو عدم موافقتها لأنّها في ذاتها يجب أن تشتق المقاييس وتستمد منها الأصول"[10]، وموقف الكوفيين من القراءة يترجمه إمامهم الكسائي(المتوفى سنة189هـ) فقد اجتمعت لديه الصّفتان: إمامة النحو والقراءة وكان له أثر بارز في موقفه من القراءات، فهو عالم خبير بها، ويحتجّ بها بما يؤيدها من لغات العرب، و أفانين قولها غير أنّ صبغة النّحو كانت الغالبة على فكره مما جعله غير متشدد في موقفه من الرسم، وظهر موقفه هذا عندما منع قراءة﴿ ***إنّما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون***﴾***(يس الآية 28)***، بالرفع، على جعل الكلام مكتفيا بقوله تعالى: "أن يقول له كن" ثم قال (فيكون) أيّ فيكون ما أراد الله على الاستئناف، أو عطف الجمل ورأى أنّ "الصواب هو النّصب على عطف(فيكون) عطف نسق على الفعل المنصوب بـ((أن) وهو (يقول) ما قرأه ابن عامر من السبعة"[11]، و قد صحّح الفرّاء (المتوفى سنة207هـ وقيل215هـ) هذا الخطأ من أستاذه الكسائي، وقال "وأكثر القرّاء على الرّفع، والرفع صواب، وذلك أن تجعل الكلام مكتفيا عند قوله تعالى: "إذا أراد شيئا أن يقول له كن" فقد تمّ الكلام، ثم قال: (فيكون ما أراده الله) وإنّه لأحبّ الوجهين إليّ و إن كان الكسائيّ لا يجيز الرّفع في الآية ويذهب إلى النّسق"[12].

أمّا القراءات النّادرة والمخالفة للمصحف حتى وان كانت شاذة فلا يهمه المرذول منها، "فلم نجده يردّ واحدة منها، بل يقبلها جميعا ويوجهها وفق مذهبه النّحوي المقعد، ويبني من خلالها بعض القواعد الجديدة ومن أمثلة ما يوضح ذلك إجازة قراءة أبي عمرو بن العلاء:﴿ ***إنّ الله وملائكته يصلّون على النّبيّ***﴾***(الأحزاب الآية 56)***، برفع الملائكة عطفا على محل اسم إنّ قبل مجيء الخبر[13]، لهذا لاتعزوا كثيرا عن مناهج التقعيد وقد نتوصل إلى أنّ القراءات القرآنية تعدّ ثراء أدبيا ولغويا، بما أثارته من حوار أخصبت به الحقول الفكرية العربيّة، كما ساهمت في شحذ الهمم وصقل العقول لمناقشتها وتحليلها وتعدّ أيضا إضافة يمكن من خلالها أن تزود اللّغويَ في فهمه وتحليله للغتة العربيّة الفصحى ولهجاتها.

4. نظرة العلماء إلى اللّهجات:

بدأ الاختلاف اللّهجي واضحا في الجزيرة العربية نظرا لاتساعها ورحابتها، فقد كانت مختلفة البيئات، مما شرع اللّهجات أن تنشأ وتتصارع فيما بينها حتّى أدى ذلك سيادة لغة عامّة بين العرب جميعا نتيجة تواصلهم ولقائهم عبر الأسواق والتّجارة التي كانت تعقد للأدب والتّغني بالشّعر وان كانوا يلجأون فيها إلى الفصحى، فإنّ لهجاتهم الخاصّة التي ألفوها كانت تتسرب إلى ديارهم وأوطانهم، ولم يكن الخلاف جوهريا بين اللّهجات العربية للصّلة

القائمة بين العرب. بل كان الخلاف في الفروع لا في الأصول، وهذا راجع إلى طبيعة العلاقة بين اللّغة واللّهجة، فهي العلاقة بين العام والخاص أو بين الأصل والفرع.

ويدلي عبد العال سالم مكرم أنّ: "القراءات القرآنية قرئت وفق اللهجات المختلفة على حسب ما تنطق به الألسنة، لأنّ ذلك يؤدي إلى اضطراب وتشكيك في هذه القراءات متواترها وشاذّها، وان كانت فيها ظواهر لهجية فهي محكومة بالرواية والنّقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليس لأحد أن يقرأ بلهجته كما يشاء ولو كان الأمر كذلك لوجدنا في القراءات العيوب الخاصّة في لهجات العرب، والتي كان يتجنبها الفصحاء"[14].

ولما أخذ العلماء وهمّوا في جمع اللّغة وتدوينها قاموا بإهمال اللّهجات وإسقاطها، واهتموا فقط بالفصحى التي نزل بها القرآن الكريم واقتصر رواة العربيّة في الأخذ عن قبائل معيّنة، وقد تردد بين العلماء كلام كثير حول تعيين العرب المحتجّ بكلامهم، فمنذ القرن الأول هجري نشأ الصّراع العلمي حول الموضوع بين البصريين والكوفيين وظلّ الجدل قائما إلى اليوم بين المحدّثين في تحديد ماهية اللهجات مرذولها وفصيحها وما وافقت في ثناياها النّص القرآني.

وقد أجمع أهل العلم والعربيّة أنّ العرب الذين يؤخذ عنهم ويوثق بعربيتهم ويستشهد بكلامهم هم عرب الأمصار إلى نهاية القرن الثّاني هجري وأهل البدو من جزيرة العرب إلى آخر القرن الرابع، وفي الحواظر إلى القرن الثّاني وأمّا ما ظهر من لحن وخطأ خلال تلك الفترة فهو ضئيل يمكن الإغفاء عنه بإغفاله تجنبا لمشكلات تعيق اللّغة وتوقف تقدمها والاستفادة منها. "فمن الخير الاقتصار على تلك المدّة لأنها التي سلّمت فيها أو كادت، ولأنّ الخطأ تدفق بعدها من ثغرات متعددة"[15].

فكان الكلام الذي يحتج به هو كلام العرب الخالص في عصور محدودة القرون الأربعة الأولى ، وهنا فقد اقتصر العلماء على تدوين كلام القبائل في وسط الجزيرة العربية، كأسد وتميم وهذيل وقيس والذي دوّن منه كلام لبعض الأفراد، فإذا نسبنا هؤلاء الأفراد إلى قبائلهم ثم نسبنا هذه القبائل القليلة إلى قبائل العرب عامّة، عرفنا مدى صدق عمرو بن العلاء وصحّة مذهبه حين قال:"ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقلّه ولو جادكم وافر لجادكم علم وشعر كثير"[16].

وهذه القبائل التي ذكرناها وغيرها من القبائل التي تحدث عنها مؤرخو النّحو هي التي اعتمد عليها في أخذ اللّغة وجمعها فجعلوها موردا وحددوا للفصاحة رقعة على حسب الزّمان والمكان، وحين همّ علماء اللّغة بالجمع نصبوا مناهج علمية دقيقة لا تقلّ صرامة عن مناهج علماء الحديث أنذاك، ولم ينظروا إلى اللّهجات أنها تنضوي في إطار اللّغة الأصل، فحاول النّحاة صهرها وإخضاعها للقوانين اللّغوية العامّة طوعا وكرها أصلا وفصلا .

وقد ألّفت بعد ذلك بعض الكّتب الخاصّة في اللّهجات، لكنّ العرب القدمى حين كانوا يشيرون إلى تلك الاختلافات والفوارق بين لهجات القبائل لم يستعملوا مصطلح اللّهجة على النحو الذي مسّ الدّرس اللّغوي الحديث، بل أنّهم لم يستعملوه قطّ في كتبهم، بل ورد في معاجمهم أنّ اللّهجة هي اللّسان أو طرفه أو جرس الكلام، ولهجة فلان لغته التي جبل عليها فاعتادوها ونشأوا عليها بل كانوا يطلقون على مصطلح اللّهجة (لغة) أو (لغية)، و يرى في ذلك عبده الراجحي أنّ ذلك "راجع إلى أنّهم لم يتوفروا على دراسة لهجة كاملة من لهجات القبائل التي كان يتكلّمها النّاس في حياتهم العادية، بل كلّ هذه الملاحظات تنصب على هذه الطّرق اللّهجية التي دخلت في الفصحى"[17]، والكّتب التي عرفها العرب وأطلقوا عليها كتب اللّغات كثيرة وهي: كتاب اللغات للأصمعي(ت213هـ)، و كتاب اللّغات لأبي زيد الأنصاري(ت215هـ)، وكتاب اللّغات للفرّاء (ت207هـ)، وكتاب اللّغات لابن دريد (ت321 هـ) وغيرها من الكّتب .

وتذكر كتب التّراجم أنهم ألّفوا في نوع أخصّ من ذلك هو: كتب (اللّغات في القرآن) منها لغات القرآن للفرّاء، ولغات القرآن للأصمعي ولغات القرآن لأبي زيد ، وقد وصلنا من كتب القرآن كتابان هما :(ما ورد في القرآن الكريم من لغات القبائل، لأبي عبد القاسم بن سلام (ت214هـ) و(كتاب اللّغات في القرآن أخرجه إسماعيل بن عمرو المقرئ (ت469 هـ) وإلى جانب ذلك ألّفوا المعاجم اللّغوية التي تعتبر مصدرا أساسا في حفظ تراث العربية، فهي تشتمل على ثروة عظيمة من لهجات العرب ولكن كثير منها لم يهتموا بعزوها إلى قبائلها . كما كان الاهتمام فضوليا لدى عبده الراجحي "أنّ المعجمين اللّذين نعتبرهما مصدرين هامين للهجات وبخاصة لهجات اليمن هما: (الجمهرة لابن دريد) و(شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم للنشوان بن سعيد الحميري)، و إلى جانب هذه المعاجم، توجد المعاجم الخاصّة التي كانت تجمع مادة لغوية في موضوع واحد (ككتاب النّحل والكرم للأصمعي)، وكذلك (كتب النّوادر كنوادر أبي زيد الأنصاري)، أمّا كتب النّحو فلم تهتم بقضايا اللّهجات: لأنّها تتناول اللّغة بالتقنين والتنظيم، ولو أعطى النّحاة اللّهجات حقّها من الدّرس لأراحونا من كبيرة من تأويلاتهم التي تبعد عن الفهم الصّحيح للظّاهرة اللغوية على النّحو الذي نعرفه في تخريجاتهم"[18]غير أنّنا نجد في كتاب سيبويه بعض الإشارات الواضحة إلى هذه اللّهجات كأن يقول "قوم من العرب يقولون" أو ناس من العرب أو بعض العرب الموثوق بهم وسيبويه يصنف اللّهجة أحيانا بالجودة وأحيانا بالرداءة والضعف لما التمس فيه الدليل وغاب عنه الأثر في كلام العرب وما نقل فيه ملامسة للمصدر الموثوق.

إنّ النحاة الذين اهتموا باللّهجات اهتماما عظيما هم النّحاة المتأخرون، كابن مالك (ت672هـ)، وشرّاح الألفية منهم: الرضي الأستراباذي(ت686)، والسّيوطي(ت911هـ) ويعتبر ابن جنّي(ت392هـ) أكثر علماء اللّغة

عناية باللّهجة وأقربهم إلى الفهم الصّحيح لدروس اللّغة، حيث فتح بابا كاملا في كتابه "الخصائص" بعنوان "باب اختلاف اللّغات وكلها حجّة "إذ يَعدّ اللّهجات حجّة سواء كانت موافقة للقياس أو مخالفة له، فما وافقه قِيس عليه وما لم يوافقه حُفظ ولم يَقِسْ عليه وقد وضع في هذا الباب قواعد لقبول اللّهجة أو ردّها"[19]. وقد أبرزت كتب لغوية متعددة ألوانا ومظاهر من اللّهجات العربيّة ككتاب (فقه اللغة لابن فارس ت395)، (فقه اللّغة وسرّ العربيّة للثّعالبي ت429هـ)، (و الأمالي لأبي عليّ القالي ت356هـ)، (وأدب الكتاب لابن قتيبة276هـ)، (وشرح الفصيح للبطليوسي ت 521هـ)ولابن درستويه (ت347هـ) ولابن خالويه(ت390هـ) و معجمات اللّغة وغيرها.

وكان أصحاب هذه المؤلفات والمعاجم "يعبرون عنها (باللّغات) ولم يظهر مصطلح اللّهجات واضحا إلا في العصر الحديث حيث برزت فيه دراسات اللّهجات واعتنى بها الكثيرون وظهرت فيها البحوث العلمية الجادّة"[20]. واستشهد "ابن مالك بلهجات لخم وخزاعة وقضاعة"[21]، ويرى ابن جنيّ أنّ اللّهجات كلّها حجّة في بابه المعنون باختلاف لهجات العرب وكلّها حجّة إذ يقول: "فالناطق على قياس لغة من لغات العرب مصيب غير مخطئ"[22]، وكذلك يرى أبو حيان: "أنّ كلّ ما كان لغة لقبيلة قيس عيلان"[23]، لكنّ ابن جني لم يترك كلمته من دون تقييد لأنّه إذا مضى النّاس على قوله لما بقيت لغة أدبية موحّدة بين العرب ومن القيود التيّ ذكرها ابن جني ما يلي :

- أن تكون اللّهجات في الاستعمال والقياس متراسلتين أو كالمتراسلتين وذلك أن تختار إحداهما على الأخرى لقوة الثراء في القياس.
- أن تكون إحدى اللّهجتين قليلة الاستعمال والثّانية شائعة، كثيرة الاستعمال، وحينئذ ينبغي أن نستعمل ما شاع استعماله، تتجاوز ما كان استعماله قليلا والشائع هو الفصيح.
- أن يكون استعمال اللّهجة في شعر أو سجع أو نثر وغيره في الأدب.

وحينها لا حرج في استدلال واستعمال ما ثبت ضعفه لقلّة استعماله، وليس لأحد أن يعترض على الشاعر أو الكاتب لاستعماله اللّهجة الضعيفة لأنّ الشّعر والسّجع مظنّة الحاجة إلى ذلك، وهذا ليس حجّة في أن يتغافل عن الفصيح. ويرى بعض الباحثين المحدثين لو أنّ "النّحاة عملوا بما ورد عن هؤلاء لسجلوا لهجات القبائل جميعا حفاظا على تاريخ الأمة ومجد الشعب ومستودع الحضارة"[24].

5. خاتمة:

نستنتج مما سبق أنّ القبائل الفصيحة التي ذكرها معظم النّحاة هي "قيس وتميم وأسد وهذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين"[25]، وقريش وسعد وبني بكر، أما ما ورد مخالفا لذلك فهو إمّا لهجة شاذّة أو ضعيفة ونحو ذلك وكتب العربيّة تسخر بذكر القبائل التي تنتمي إليها بعض اللّهجات[26]. فنموّ تلك الظواهر الكلامية يسقط تراجعية ونظامية ذات بنية في المحافظة على كل شاذ واستبداله بمستويات أشار إليها الدرس اللساني الحديث.

إنّ القرآن الكريم هو من فكّ قيود العربية من شذرات اللّهجات ، و إضافة لذلك جعل من العربية لغة عالميّة ناطقة بها كافة الأمم.

إضافة إلى ذلك أنَّ التنزيل المبين كان له الفضل الكبير ضبطية اللغة والتّقعيد لها، حتى صار بمنزلة الروح من الجسد بل بفضله ذاع صيت العربيّة واتّسعت رقعتها الجغرافية من حيث التعليم حتى صارت تلقن ببلاد من دنسوها في ما مضى.

فالقراءات القرآنية مادة دسمة سارت في ظلّ الدّرسات اللّغويّة الحديثة والقديمة، فكانت مادة من مواد الدّرس النّحوي؛ لأنّها وإن تمايزت النّظرة إليها وتعددت المسائل في إحباطها فأحدث ذلك طفرة من التّفاعل البنّاء بين النّحويين، وما الاختلاف فيها إلاّ لفكّ شفرة الجهل والجهالة لإحصاء واستبيان عطر القراءات القرآنية من سلامة في التركيب، فالقرآن الكريم واحد ذو منهج سليم يدعوا إلى التوحيد وإن تعددت أحرفه، لا سبيل لتخطئة قراءة إذا ما راعت ضوابط القراءة الصحيحة المتواترة ذات السند، ما لم تخرج عن غمار اللغة الأدبية ومرذولها شعرا أو نثرا.

6. الهوامش:

[1]: السّيوطي جلال الدين، الاقتراح في أصول النحو: تحقيق محمد حسن إسماعيل الشافعي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1998، ص17.

2: عبده الراجحي، اللّهجات العربيّة في القراءات القرآنيّة، ط1، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية ، 1995، ص90.

3: ابن الجزري، النّشر في القراءات العشر، تقديم علي محمد الضّباع، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2002، ج1، ص211.

4: الجندي أحمد علم الدين، اللّهجات العربية في التراث، الدار العربية للكتاب، 1982، ج1، ص108.

5: عبده الراجحي، اللّهجات العربيّة في القراءات القرآنيّة، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1995، ص186

6: سيبويه، الكتاب تحقيق عبد السلام هارون، دار القلم، الهيئة المصرية للكتاب، 1998، ج1، ص74.

7: فتحي عبد الفتاح، الإعجاز النّحوي في القرآن الكريم، ط1، مكتبة الفلاح، 1984، ص113 – 114.

8: ياقوت أحمد سلمان، ظاهرة الإعراب في النّحو العربي وتطبيقها في القرآن الكريم، ط1، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائرية، 1989، ص140.

9: المرجع نفسه، ص140.

10: عبد العال سالم مكرم ، القراءات العربية وأثرها في الدراسات النحوية، ط1، مؤسسة الرسالة للطباعة والنّشر والتّوزيع ، 1996، ص109.

11: الفراء أبو زكرياء ، معاني القرآن،: تحقيق د/أحمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار، ط2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1980، ج1ص74 – 78.

12: عبد العال سالم مكرم، القراءات القرآنيّة وأثرها في الدّراسة النّحوية، ط1، مؤسسة الرسالة للطباعة والنّشر والتّوزيع، 1996، ص109.
13: النحاس أبو جعفر، إعراب القرآن،: تحقيق زهير غازي زاهد، ط2، عالم الكتب، مكتبة الحفظة، 1405هـ، ص 645.
14: عبد العال سالم مكرم، قضايا قرآنية في ضوء الدراسات اللغوية، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1988، ص37.
15: محمد حسن إسماعيل الشافعي، الاقتراح في أصول النّحو، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1998، ص107.
16: السيوطي جلال الدين، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق محمد أحمد جاد المولى، منشورات المكتبة العصرية صيدا، بيروت، ج1، ص401.
17: عبده الراجحي، اللّهجات العربية في القراءات القرآنيّة، ، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط1، 1995، ص45.
18: المرجع نفسه، ص52.
19: أبو الفتح عثمان بن جني، الخصائص، (ط: د ت)، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، ج1، ص398.
20: حامد هلال عبد القهار، اللهجات العربية نشأة وتطورا، دار الفكر العربي، القاهرة، ص83.
21: محمد حسن إسماعيل الشافعي، الاقتراح في أصول النّحو، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1998، ص20.
22:أبو الفتح عثمان بن جني، الخصائص، (ط: د ت)، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، ج1، ص400.
23: السيوطي جلال الدين، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق محمد أحمد جاد المولى، منشورات المكتبة العصرية صيدا، بيروت، ج1، ص285 .
24: الجندي أحمد علم الدين، اللّهجات العربيّة في التّراث، الدار العربية للكتاب، 1982، ج1، ص169.
25: محمد حسن إسماعيل الشافعي، الاقتراح في أصول النّحو، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1998، ص19.
26: الجندي أحمد علم الدين، اللّهجات العربيّة في التّراث، الدار العربية للكتاب، 1982، ج1، ص112.